في الفلسفة الإسلامية

ابن باجـــه

للأســـتاذ عمر الدسوقي

(تتمة ما نشر في العدد الماضي)

الفصل الثاني من تدبير المتوحد (١)

تكلم ابن باجّه في هذا الفصل عن أعمال الإنسان ، والفرق بينها وبين أعمال الحيوان . أمّا الأعمال البشرية المحضة الخاصة بالإنسان فهي الصادرة عن الإرادة المطلقة : أي الإرادة المصحوبة بالاختيار والروية والتفكير الحر ، لا عن غريزة ثابتة في الإنسان ثبوتها في الحيوان . وقد يشارك الإنسان الحيوان في بعض أفعاله كأن يهرب من مفزع أو يكسر عوداً خدشه ، لأنه خدشه فقط ، فهذا عمل حيواني ، أمّا أن يكسره لئلاً يخدش غيره

(١) نقل هذا الفصل الأستاذ أبو ريده عن النسخة التيمورية ، ونحن هنا نلخصه عن مونك مع الموازنة بينه وبين ما نقله مترجم دي بور

وتضلعوا جهد طاقتكم من تاريخكم المجيد ولغتكم الكريمة ، ساميتين عظيمتين كما خلقهما الله ، لا كما ينشرها أبواق الدس من الجاهلين الادنياء ... وإن آنستم من بعض مرشديكم انتقاصاً لأبطالكم ، أو تزهيداً في تاريخكم ، أو تحقيراً لكريم تقاليدكم ، أو تهويناً للغتكم ، فانبذوا إليه على سواء ، واعلموا أنه مأجور جاهل ، فلا تهتموا به ، فإنه يزاد أجره ، ويُعلى مقامه على قدر ما يحدث من فتنة أو ضجة ... دعوه يعث بدائه ، واعكفوا أنتم على دراسة تاريخكم ولغتكم ودينكم في دور الكتب منقبين ممعنين فلكم على ذلك أجر المجاهدين الصابرين

ثم لا تسمحوا لأيّ كان ، مهما عظمت مكانته أو طغت سطوته ، أن ينال من هذه الثلاث : كرامتكم ورجولتكم وعروبتكم ... فإنه لا خير لنا ولا لبلادنا في شاب : لا كريم ولا عربي ولا رجل ! !

وكل ما أسأل الله : أن يعزكم ويعز وطنكم بكم ، وأن يجعلكم ممن قال فيهم : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين »

« دمشق » سعيد الأفغاني

أو عن روية توجب كسره فذلك عمل إنساني .

فالعمل الحيواني إذاً هو الذي يصدر عن انفعال نفساني وغريزة ثابتة كالغضب والخوف ، أمّا العمل الإنساني فهو الذي يوحيه الفكر سواء تقدم الفكر انفعالٌ نفساني أو مؤثر غريزي أم أتى بعده ، وسواء كانت الفكرة يقينية أو مظنونة . ويندر أن تكون أعمال الإنسان حيوانية على الإطلاق — لأنها على الأقل يصحبها التفكير في تنفيذها — أمّا الأعمال الإنسانية البحتة فقد توجد ، وإذا تعاونت الغريزة والفكر كان النهوض للعقل أقوى .

وأمّا من يفعل الفعل لأجل الرأي والصواب ، ولا يلتفت إلى ما يحدث في النفس البهيمية ففعله أولى أن يسمى إلهياً لا إنسانياً

ولهذا وجب على المتوحّد أن يكون فاضلاً حتى إذا قضت النفس الناطقة بأمرٍ لم تعاند فيه النفس البهيمية ، لأنها إذا عاندت وضعت المراقيل والصعاب ، وكان حدوث العمل بكرهٍ وعسر . والرجل الذي تتغلب فيه النفس الحيوانية على الناطقة أقل من الحيوان لأن الحيوان يسير على طبيعته وسجيته ، أمّا هذا النوع من الرجال الذي يملك الفكر الإنساني ، ويمكنه أن يتقن العمل ويتقاعد عن ذلك فهو أقل من الحيوان ؛ لأنه مع ذكائه ووقوفه على الخير والشر تراه يتبع الحيوان ، ومثل الذكاء في هذه الحال مثل الغذاء الشهي يعطي لبدن سقيم .

إن الجماد يتحرك إلى أسفل بالطبيعة ، وليس له قصد في حركته ، والعمل الحيواني في النفس كالغذاء والتولد والنمو يتم بدون قصد أي يتم بالطبيعة والغريزة . أمّا العمل الإنساني فهو يصدر دائماً عن تفكير وإرادة منّا ولذلك كان في قدرتنا التحكم فيه ، وعلى هذا فالغايات والعلل النهائية لا تعين ولا تحدّد إلاّ بالأعمال الإنسانية التي هي مدار البحث .

الفصل الثالث

بعد أن تكلم على الأعمال الإنسانية التي تحدد الغاية ، وأن الغاية التي يجب أن يتوخاها المتوحد هي التفاذ إلى المعقولات أخذ يفرق بين العقل والروح والنفس ، وليس للمؤلف رأي خاص ، وإنما يردد ما ارتآه الفلاسفة ثم يتطرق إلى العالم الروحاني ويرى ابن باجة أنه أربعة : العقول الفلكية ، والعقل الفعّال ، والعقل الهيولاني ، والجزء المفكر من النفس الإنسانية بما يشتمل عليه من قوى كالقنطاسيا Sense Commun والخيال ، والذاكرة والمفكرة ... الخ .

أما العقول الفلكية فلا علاقة لها بالمادة ، وأما العقل الفعال فهو الذى يشكل المادة ويظهرها فى صور مختلفة ، وأما العقل الهيولانى فهو الذى يشمل الأشياء المادية المعقولة[1]

الفصل الرابع

فى غايات أعمال الإنسان ، فأعمال تخدم البدن ، كالأكل والشرب واللبس ، وغايتها التمتع المادى ، وإتمام الشكل الجسمانى ولا ينبغى إهمالها . وأعمال غايتها خدمة الروح وتشكيلها (الروح بما فيه الجزء الحيوانى والمفكر) وتلك الأعمال تختلف باختلاف طبيعة الأشياء التى تقصد إليها نبلاً وخسة : (ا) فمنها ما يلذ للحس الباطنى كغرور بعض الناس بارتداء الثياب الجميلة فى الظاهر وهم يهملون الملابس الداخلية (ب) ومنها ما يلذ الخيال كأن يتسلح الإنسان فى غير أوقات الحرب (حـ) ومنها ما يقصد به التسلية والسرور كاجتماع الأحباب والألعاب ، والعلاقات الشريفة بالمرأة Relations galantes ، والترفه والسكن الجميل ، واقتناء الأثاث والبلاغة والشعر (د) الأعمال التى غايتها كمال العقل والفكر كأن يدرس رجل علماً لذاته كى يكمل عقله لا ليعود عليه بنفع مادى ، أو كأن يقدم على الأعمال الشريفة الكريمة بدون ترقب نتيجة معينة

الفصل الخامس

إن من يقتصر على الأعمال الجسمانية يضع نفسه فى صفوف الحيوان ، ومن يهمل الوجود الجسمانى ألبتة يعمل ضد القانون الطبيعى ، وهذا لا يجوز إلا فى حالات استثنائية حيث يكون احتقار الحياة فرضاً على الإنسان كأن يموت فى سبيل الدفاع عن الوطن أو الدين ، ولا يمكن أن يصل الرجل المادى إلى السعادة

وعلى المتوحد ألا يتناول من الأعمال الجسمانية إلا ما كان وسيلة فى مدِّ أجله ، وعليه ألا يقدِّم العمل الجسمانى على الروحانى أبداً ؛ ثم لا يأخذ من أرقى أنواع الأعمال الروحانية إلا ما كان ضرورياً للمعقول ؛ ثم يتعلق فى النهاية بالمعقول المطلق ؛ لأنه بالعمل الجسمانى يكون مخلوقاً إنسانياً ، وبالروحانى يكون مخلوقاً أرفع ، وبالمعقول يصير معقولاً ساميا إلهياً .

فالفيلسوف إذاً إنسان سام إلهى على شرط أن يختار من كل نوع من الأعمال صفة ، وأن يختلط بأهل كل طبقة من الناس لأجل أسمى ما فى كل واحد منهم من الصفات ، وأن يميز نفسه عن الجميع بأعماله المتناهية فى الرفعة والمجد ، فإذا ما وصل الإنسان إلى الغرض النهائى ، أى عند ما يفقه العقول البسيطة والعقول المفارقة Intelligences separées يصير واحداً منها (يظهر أن هذا فى الحياة الدنيا وفيه مخالفة للفارابى ، ويمكن أن يسمى مخلوقاً إلهياً بحق وجدارة

الفصل السادس والسابع والثامن

على الرغم من أن الفكرة التى يرمى إليها ابن باجه فى هذه الفصول غامضة كما صرح بذلك ابن رشد ، وعلى الرغم من أن الفصل الثامن والأخير وجد فى النسخ ناقصاً فإنا نستطيع أن نوجز ما يريده ابن باجه فيما يأتى :

إن الهيولى لا يمكن أن توجد مجردة عن صورة ما ، أما الصورة فقد توجد مجردة عن الهيولى[1] ، وإلا لما استطعنا أن نتصور إمكان أى تغير ، لأن التغير إنما يكون ممكناً بتعاقب الصور الجوهرية ، وهذه الصور من أدناها وهى الصورة الهيولانية إلى أعلاها وهى العقل المفارق — العقل الفعال — تؤلف سلسلة والعقل الإنسانى يجتاز فى تكامله مراحل تقابل تلك السلسلة حتى يصير عقلاً كاملاً[2]

وفى النفس الإنسانية قوى مختلفة فمنها ما يدرك المحسوسات ومقره « الفنطاسيا » أو الحس المشترك ، ومنها القوة المتخيلة التى تظهر فى الميل الطبيعى l'appétit[3] والشهوة، وهذان مشتركان فى الإنسان والحيوان ، ومنها القوة الفكرية . وهناك نوعٌ موهوب من الناس عنده قوة أخرى لا تحتاج فى إدراك الأشياء إلى برهان أو دليل ، وإنما يكون ذلك بطريق الوحى والإلهام والرؤيا الصادقة ، وهذان النوعان الأخيران خاصان بالانسان[4]

ولأجل أن يدرك الإنسان كماله يدرك أولاً الصور المعقولة

---

(١) يظهر أن ابن باجة لم يوضح العقل الهيولانى أو أن مونك لم ينقله كما يجب ، وعلى كل فهذا التقسيم الذى ذكره ابن باجه ذكره ابن رشد والعقل الهيولانى عند ابن رشد هو عقل الانسانية فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها وهو أزلى . ولعل ابن رشد فهم ما قصده أستاذه ابن باجه أكثر منا

(١) يخالف بذلك رأى أرسطو الذى يقول بأن المادة لا تنفصل عن الصورة إلا فى الذهن (٢) دى بور ص ٢٤٣

(٣) مونك ص ٣٩٩ الملحوظة الأولى

(٤) توجد بعض أعمال يحتويها الطبيعة بعض الحيوان ، ولقد أبدى أرسطو نفس هذه الملحوظة وقال إنه يوجد فى بعض الحيوان حذر شديد ولا سيما تلك التى ليس فيها الدم كالنمل والنحل — مونك نفس الصفحة

الجسمانيات ، ثم تصورات النفس المترددة بين الحس (القوة القوة المتخيلة) ، ثم العقل الانسانى فى ذاته ، ثم العقل الفعّال ، الذى فوقه ، وينتهي إلى إدراك عقول الأفلاك المفارقة ، ويترقى الانسان فى هذا السلم ويصل إلى ما هو فوق طور العقل وإلى ما هو إلهى

ويقول المؤلف : « إن العقل الفعال لا ينقسم أى لا يتجزأ ، وكل نوع من الكليات يوحد فى العقل الفعال كوحدة ، وعلى هذا فعلم هذا العقل المفارق واحد وإن كانت موضوعاته مختلفة بتعدد الأنواع ، وإنما كانت متعددة لأنها تظهر فى مواد مختلفة . وفى إمكان العقل بالفعل[1] أن يقرب هذه الكليات منه ويدركها ولأجل هذا كان الإنسان أقرب المخلوقات إلى العقل الفعال . فالعقل الإنسانى يصل إلى معرفة الكلي بشروق نور العقل الفعال ، وكل إحساس أو تخيل غير معرفة الكلى فهو معرفة خادعة[2] . إن العقل الإنسانى يصل إلى كماله بالمعرفة العقلية لا بالخيالات الصوفية الدينية التى لا تبرأ من شوائب الحس . والنظر العقلى هو السعادة العظمى لأن غايته للمعقولات كلها . وإذا كان الكلى بهذه المثابة فلا يمكن القول ببقاء العقول الإنسانية بعد هذه الحياة »

أما النفس التى تدرك الجزئيات بتخيلها لها على نحو يجمع بين الإحساس والتعقل والتى يتجلى وجودها فى شهوات متعددة وأعمال متنوعة كما مر فقد تستطيع البقاء بعد الموت وتلقى الثواب والعقاب . إن العقل أو الجزء المفكر فى النفس واحد فى كل عاقل ، وعقل الإنسانية فى جملتها هو وحده الأزلى وذلك باتحاده بالعقل الفعال . وقد تأثرت الأفكار المسيحية بنظرية وحدة النفوس[3] هذه إبان القرون الوسطى وعرفت بنظرية ابن رشد

ويقول مونك : « إن ابن باجه لا يوضح بجلاء الطريق التى تتم بها تلك الحركة السامية ، وكيف يتصل العقل الإنسانى والعقل الفعال العام ، وقد رأينا فى رسالة الوداع أنه مضطر إلى إدخال قوة فوق الطبيعة لإتمام هذا الاتصال » هى إشراق نور العقل الفعال على العقل الإنسانى .

(١) العقل بالفعل هو عقل الانسان ويسمى العقل المنفعل وهو يفنى بفناء الانسان — ومع أن ابن باجه يقول إنه بالتفكير يستطيع هذا العقل بالعقل أن يتصل بالعقل الفعال ومع هذا لم يبين لنا كيف يكون الاتصال وتراه يضطر إلى إدخال قوة خارجية يسميها الالهام أو الوحى حتى يتم هذا الاتصال .

(٢) يتأثر هذا برأى أفلاطون والكليات هنا تشبه عالم المثل عند أفلاطون

(٣) لقد وضحنا هذه النظرية فى المقال السابق كما نشره ابن رشد

المتوحد

والواضح عند ابن باجه هو ذلك الطريق الخلقي الذى رسمه للمتوحد والذى ينصحه فيه ألا يرتبط بالرجل المادى ولا بالرجل الذى ليس له إلا غاية روحانية نفسانية « التى تتردد بين الحس والعقل » ، ولو فى أرقى أنواعها ، وواجبه أن يرتبط بالفلاسفة والحكماء ، ولما كان هؤلاء يوجدون بقلة فى بعض الأمكنة وتخلو منهم أمكنة أخرى ، وجب على المتوحد أن يبتعد عن الناس على قدر الإمكان ، ولا يختلط بهم إلا لأجل الضروريات بمقدار ضرورى ، كما يجب عليه أن يعطى نفسه بأكمله لتعليمه الإلهى ، وأن يضىء لمن حوله كالنور ، ويهب نفسه سراً لإدراك علم الخالق Cult du Createure كما لو كان ذلك أمراً معيناً ، وعليه أن يرتاد الأماكن التى بها العلماء والحكماء إن وجدهم ، وأن يجتنب الشبان القليلي الخبرة . ولا يرى ابن باجه فى هذا التوحد مناقضةً لعلوم السياسة التى تقول : إن مجانبة الناس خطأ ؛ ولا العلوم الطبيعية التى تقول : بأن الإنسان مدنى بالطبع ؛ لأن هذين المبدأين صحيحان نظرياً إذا تملك الرجال كمالاتهم الطبيعية ، ولما كان هذا نادراً وجب على المتوحد الابتعاد عن المجتمع[1] .

« بيروت »

عمر الدسوقى

(١) راجع الفصول الخمسة الأولى من رسالة تدبير المتوحد حتى تفهم برنامجه . وعلى العموم فأفكار ابن باجه كلها أو جلها على الأقل موجودة فى حى بن يقظان . وهو عند ابن رشد أوضح ، وأثر ابن باجه فى هذين الحكيمين عظيم جداً .

ظهر حديثاً

أقاصيص من القهوة

بقلم عبد المعطى المسيرى

مجموعة قصصية — الثمن ١٠ قروش صاغ

محاولة صادقة لتصوير حياة المهضومين والمحرومين . هؤلاء الذين تلفظهم الحياة على حواشيها وأطرافها .. والذين تفصل بينهم وبين الحياة الصحيحة هوة عميقة من الجشع والأثرة والاستبداد . . ويقعد بهم عن اجتيازها الجهل والضعف والاستخذاء

يطلب الكتاب من المكاتب المعروفة بمصر ومن مكتبة فيكتوريا بالاسكندرية ومن المؤلف وعنوانه : عبد المعطى المسيرى — قهوة رمسيس — دمنهور